

أول مدرسة مصرية فرنسية *

للدكتور زكى مبارك

هذه أول مرة تلقى فيها كلية اللغة العربية ، بجانب كلية اللغة الفرنسية ، في هذا المعهد ؛ وذلك حق كسبته اللغة العربية منذ عامين ، منذ إنشاء القسم المصرى الذى تسود فيه اللغة العربية سيادة أصيلة ، ويدرس فيه الأدب العربى دراسة مفصلة ، على نحو ما يدرس في أرقى المدارس المصرية

والقسم المصرى لم ينشأ بهذا المعهد لمجرد الجمالة ، وإنما هي خطة تعليمية قضى بها المنطق السليم ، وتوجيه صالح وفق إليه المشرفون على سياسة التعليم في هذا المعهد الذى يجمع بين القديم والحديث .

فأنا أيها السادة أتكلم باسم أساتذة اللغة العربية في القسم المصرى كما تكلم زميلى المسيو بارال باسم أساتذة اللغة الفرنسية في القسم الفرنسى ، وكذلك يأخذ الأدب العربى مكانه في تقاليد الحفلات السنوية منذ اليوم ، وبصير من حظ هذا المنبر أن يطرب في كل عام وهو يستمع لغة القرآن .

وإنشاء القسم المصرى في معهد اللبسيه هو الذى أوحى إلى موضوع هذه الخطبة ، وهو الكلام عن أول مدرسة مصرية فرنسية في التاريخ الحديث .

والمدرسة التى أعنيها هي البعثة التى أرسلها محمد على الكبير إلى فرنسا في سنة ١٨٢٦ وقد كانت مؤلفة من اثنين وأربعين طالبا منهم ثلاثة من طلبة الأزهر الشريف .

وما سميت تلك البعثة مدرسة من باب المجاز فقد كانت مدرسة بالفعل ، وكذلك سماها المسيو جومار في التقرير الذى نشره في الجورنال أزياتييك في سنة ١٨٢٨ .

ومن طريف التشابه أن أذكر أن المدرسة المصرية الأولى كانت مؤلفة من اثنين وأربعين طالبا ثم زاد طلبتها بعد ذلك وأن القسم المصرى في اللبسيه كان طلبته في الأسبوع الأول

اثنين وأربعين طالبا ثم تكاثر العدد وازدحمت الفصول . ولعل تشابه الحظوظ في هذه البداية يبشر بتشابه الحظوظ في التمام والتفوق . والله بالتوفيق كفى .

سافرت البعثة من مصر في يناير فوصلت إلى باريس في يوليو ، وإنما كان السفر طويلا لأن المواصلات لم تكن سهلت إلى الحد الذى تعرفوه في هذه الأيام ، وقد كانت تلك الرحلة المطولة سبباً في أن يتعرف الطلاب إلى الأقاليم الفرنسية ، ويدرسوا ما اختلف وما اختلف من أخلاق الناس .

ولما استقر الطلبة في باريس عاشوا تحت إشراف ثلاثة من الأساتذة المصريين ، وكان لأولئك الأساتذة الثلاثة واجبات دراسية ، ومن هذا ترون كيف كان المصريون يعرفون واجبه في ذلك الحين

كان الطلبة يقيمون أول الأمر مجتمعين في بيت واحد يسمونه المركز ، ثم روى أن يتفرقوا في المنازل الفرنسية ليتذوقوا الروح الفرنسى . فنظمت لهم لائحة مكونة من أربع عشرة مادة . وإليك نصوص تلك المواد لتروا كيف كانت إدارة البعثة تفهم الواجبات التعليمية في تلك العهود

المادة الأولى : (١) إن يوم الأحد المقرر لهم الخروج فيه يلزم أن يخرجوا من البنسيونات في الساعة تسعة ويأتوا إلى البيت المركز من أول الأمر ويقدموا وقت الدخول ورقة معلمهم إلى الأفتدى التوتجى لأجل أن يعلم ساعة دخولهم في البيت ، وبعد ذلك يذهبون إلى المواضيع المعدة للفرجة بشرط أن يجتمع ثلاثة أو أربعة ، ثم يرجعون إلى البنسيونات في أيام الصيف الساعة تسعة ، وفي أيام الشتاء الساعة ثمانية

المادة الثانية : إن من لم يمثل لخصوص ما سبق يمنع الخروج من البنسيون بحسب الاقتضاء جمعة أو جمعتين

المادة الثالثة : إن كل من له شكاية من معلمه لا تسمع ولا تقبل حتى يكتبها في ورقة . ولا تسمع إلا إذا كانت من جهة التعليم أو جهة أخرى يحصل له منها ضرر

(١) هذه اللائحة كتبت بقلم المنفور له الشيخ رفاعة بك الطهطاوى وقد اختفتنا بباراته

وزرسل فاعل القبح والعصيان بنفسه حالاً إلى مصر من غير شك ولا شبهة .

المادة الثانية عشرة : إن جميع الأفندية يكونون في البنسيونات في هذا الترتيب على حد سواء ، وإن كان في البنسيونات مائدتان أحدهما للبعليين والآخرى للتلاميذ فأفنديتنا يأكلون مع معلمهم .

المادة الثالثة عشرة : إن الأفندية المذكورين يلزمهم جميع ما ذكر من القوانين من غير امتياز ولسبب ذلك أعطينا كل واحد منهم صورة ذلك

المادة الرابعة عشرة : كل المواد السابقة هي خلاصة أفكارنا ونتيجة أذهاننا وأذهان الأعيان الذين وصاهم علينا حضرة أفندينا ، وبناء على ذلك كل أحد يلزمه أن يبقها مع التنبيه لأجل تحصيل رضا حضرة أفندينا ولي النعم . فمن لم يمثل أو تعلل بشئ ، يجرى عليه ما هو مذكور في قانون حضرة أفندينا ولي النعم حفظه الله

أيها السادة :

حدثكم أن محمد علي الكبير وكل رعاية تلك البعثة إلى المسيو جومار ، فاسمحوا لي أن أشير إلى بعض النواحي من أخلاق ذلكم الرب العظيم .

كان المسيو جومار يحرص أشد الحرص على تذكير الطلبة المصريين بأنهم من شعب مجيد له فضل سابق على الانسانية فقد قال في الخطبة التي ألقاها عليهم في حفلة توزيع الجوائز في اليوم الرابع من يولييه سنة ١٨٢٨ :

« أيها الشباب ، هذه أول مرة بعد وصولكم إلى فرنسا تعطى لكم أمام الجمهور المكافأة التي تستحقونها على عملكم الذي ثابتم عليه ، وهذا اليوم يعد من أفضل أيام حياتكم ، والآكليل التي ستوج بها رؤسكم بعد هنيئة هي رمز غر عظيم ، لأنكم أنتم في عاصمة العلوم والفنون ، وفي وسط مدينة تجمع بين جوانبها كل ما وجد من عناصر المدنية اليونانية وكل ما وجد من العناصر الفخمة في طيبة ذات المائة باب .

أمامكم مناهل العلم فاغترفوا منها بكلتا يديكم ، وهذا هو

المادة الرابعة : إن جميع الأفندية يمتحنون في آخر كل شهر ليعرف ما حصلوه من العلوم في هذا الشهر ويسألون عما يحتاجون إليه من الكتب والآلات ويكتب في آخر كل شهر كتبهم وتحصيلهم وأفعالهم على الوجه الصحيح

المادة الخامسة : لو احتاجوا شيئاً من الكتب والآلات في أثناء الشهر يطلبونه من معلمهم بورقة يكتبونها له ، ومعلمهم يخبر بذلك مسيو جومار ، فإن رآه مناسباً يعطيهم ذلك بعد ما يخبر النوبتجي ، فإن اشترى أحد شيئاً من غير إجازة يلزمه أن يدفع ثمنه من عنده

المادة السادسة : إنه بعد الامتحان بما ذكرنا في المادة الرابعة إن استحق أحد من الأفندية الهدية ^(١) لنجابهة تعطى له كتب وأدوات وسعة

المادة السابعة : في محل التفرج أو الطريق لا ينبغي لأحد منهم أن يرتكب ما يخجل بمروءته ، وهذا الأمر هو أهم الجميع ومنوع أشد المنع

المادة الثامنة : إن كل الأفندية الذين في البنسيونات لا يدخلون البيت المركز إلا كل خمسة عشر يوماً مرة وهو يوم الأحد

المادة التاسعة : إن يوم الأحد الذي لا يأتون فيه إلى البيت يخرجون فيه مع أولاد الفرنساوية أو مع المعلمين إلى مواضع التفرج أو الرياضة أو ما ينبغي رؤيته ، وكذلك يوم الخميس أو يوم التعطيل ^(٢) ، إن لم يكن عليهم شغل فيذهبون مع من ذكر إلى المواضع المذكورة

المادة العاشرة : إذا خالف أحد هذا الترتيب يقابل بقدر مخالفته ، وإذا أظهر عدم الطاعة يحبس بالخشونة ، وإن كان يتشبث بأفعال غير لائقة وأطوار غير مرضية وجاءت تذكرة من معلمه تشهد عليه بقبح حاله وتبين عصيانه فثل ما ذكر حضرة ولي النعم أفندينا في القوانين التي أعطائها لنا نتشاور مع المحبين لحضرة أفندينا من أهالي هذه المدينة

(١) الهدية هي المجازة في التعبير الحديث

(٢) يوم التعطيل هو الآن يوم العطلة

ويحصلون الشهرة فكيف تقابلونهم إذا جئتم بهذه الكيفية وتظهرون عليهم كمال العلوم والفنون، فينبغي للانسان أن يتبصر في عاقبة أمره وعلى العاقل أن لا يفوت الفرصة وأن يجنى ثمرة تعبته ...

فإن أردتم أن تكسبوا رضاءنا فكل واحد منكم لا يفوت دقيقة واحدة من غير تحصيل العلوم والفنون، الخ. الخ. ويحدثنا الشيخ رفاعه أن هذا الخطاب كان له في أنفس الطلاب تأثير شديد، وكان من نتائجه أن صاروا يكتبون إلى مصر في كل شهر بياناً بما قرأوه وما تعلموه

أيها السادة . سمعتم اسم المسيو جومار في هذه الخطبة غير مرة، وعرفتم فضله على تلك البعثة، فن الخير أن نشير إلى أن محمد علي حفظ له ذلك الجليل، فأرسل إليه خطاب ثناء في ١٠ يناير سنة ١٨٣٤ وتروى ذلك الخطاب في كتاب سمو الأمير عمر طوسون عن البعثات

أما بعد فقد كان المسيو جومار واثقاً كل الثقة وهو يلقي أول خطبة في توزيع الجوائز على أول مدرسة مصرية، وقد حققت الأيام ظنه فكان أولئك المبعوثون رسل علم وهداية وكانت معارفهم الأدبية والعلمية أساساً لما عرفت مصر من أصول التمدن الحديث.

وأنا أيها السادة في أول خطبة لتوزيع الجوائز على طلبة القسم المصري أثق بتلاميذي أكثر مما كان يثق المسيو جومار بتلاميذه، وأعتقد أن القسم المصري بالليسيه سيخرج لكم نماذج جميلة من الشبان المثقفين الذين يعرفون واجبات الرجال نحن نعرف تلاميذنا أيها السادة، وأؤكد لكم أننا وضعنا في صدورهم جذوة لن نحمد، وهديناكم إلى نمير من المعارف لن ينضب ولن يغيض

والتلاميذ الذين يفرحون اليوم بتسلم الجوائز خليقون أن ينسوا إساءتنا إليهم أيام الدرس، فقد أسرفنا في إلقاءهم بالواجبات وعاقبناهم أحياناً على هفوات صغيرة لا تستحق العقاب، إنهم خليقون أن ينسوا غفنا وقسوتنا في معاملتهم فقد كنا على يقين من أن الأبوة تبيحنا حق التحكم فيهم،

قبسه المضي. بأنواره أمام أعينكم. فاقبسوا من فرنسا نور العقل الذي رفع أوربا على سائر أجزاء الدنيا، وبذلك تردون إلى وطنكم منافع الشرائع والفنون التي ازدان بها عدة قرون في الأزمان الماضية فصر التي تنوبون عنها ستسترد بكم خواصها الأصلية، وفرنسا التي تعلمكم وتهذبكم تفي ما عليها من الدين الذي للشرق على الغرب كله،

ولم يقف المسيو جومار عند هذا الحد من التذكير بمجد مصر، بل تحدث إلى الجورنال أزياتيك عن البعثة المصرية فأشار إلى ما أنشأ محمد علي الكبير من المدارس في وادي النيل فقال إنها ستكون عاملاً لرد النور إلى وطنه الأصلي، ذلك النور الذي يجب على كل من يمتنى بنشر العلوم والمعارف والمدنية أن يرده إلى مهده الأصل

ولعلمكم تسألون أيها السادة عن عناية محمد علي الكبير بتلك البعثة، وجواب ذلك عند الشيخ رفاعه الطهطاوي، فقد حدثنا مذكراته أن محمد علي الكبير كان يبعث إليهم من وقت إلى آخر خطاباً يحضهم به على الجد والتحصيل، وأثبت شاهداً لذلك نسوق منه طرفاً للدلالة على مبلغ عناية ذلك الرجل العظيم بأولئك المبعوثين

قال طيب الله ثراه :

قدوة الأماثل الكرام الأفندية المقيمين في باريس لتحصيل العلوم والفنون . زيد قدرهم

قد وصلتنا أخباركم الشهرية والجداول المكتوب فيها مدة تحصيلكم، وكانت الجداول المشتملة على شغلكم ثلاثة أشهر مبهمه لم يفهم منها ما حصلتموه في هذه المدة، وما فهمنا منها شيئاً، وأتم في مدينة مثل مدينة باريس التي هي منبع العلوم والفنون، فقياساً على قلة شغلكم هذه المدة عرفنا عدم غيرتكم وتحصيلكم، وهذا الأمر غمنا كثيراً، فإفنديه ما هو مأمولنا منكم، فكان يلغى لهذا الوقت ان كل واحد منكم يرسل لنا شيئاً من أثمار شغله وأثار مهارته، فإذا لم تغيروا هذه البطالة بشدة الشغل والاجتهاد والغيرة وجئتم إلى مصر بعد قراءة بعض الكتب فظنتم أنكم مثلهم في العلوم والفنون فإن ظنكم باطل، فعندنا والله الحمد والمنة رفقاً بكم المتعلمون يشتغلون